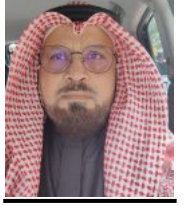


الأسواق في المدينة المنورة في صدر الإسلام

د. طلال بن عبدالله بن حسن بخش



الأسواق في المدينة المنورة في صدر الإسلام... بين البناء والتنظيم وأخلاق السوق

(يَفْحُقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيُرِيهِ الصَّدَقَاتِ)

في كل مرة نعود فيها إلى تراثنا الإسلامي، نكتشف أن كثيرًا من النظم التي تقوم عليها حياتنا اليوم قد وُضعت جذورها الأولى في المجتمع النبوي، ولكن بروح مختلفة تقوم على القيم قبل الأدوات. ومن أبرز هذه النظم نظام الأسواق، الذي لم يكن في المدينة المنورة مجرد فضاء للتبادل التجاري، بل كان جزءًا من بناء المجتمع الإسلامي، يعكس توازنه بين الاقتصاد والأخلاق.

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، كانت الأسواق القائمة خاضعة لتأثير اليهود، وعلى رأسها سوق بني قينقاع، الذي كان يمثل مركزًا تجاريًا مهمًا، قائمًا على أعراف اقتصادية لا تخلو من صور الظلم والاحتكار. ومن هنا برزت الحاجة إلى إنشاء سوق مستقل يعبر عن روح المجتمع الإسلامي الجديد، ويؤسس لنموذج اقتصادي مختلف في مبادئه وغاياته.

فلم يلبث النبي ﷺ أن أسس سوقًا خاصًا بالمسلمين، وقال:

«هذا سوقكم، فلا يَنْتَقِصْ، ولا يُضْرِبَنَّ عليه خراجٌ» (رواه ابن ماجه)

وهو توجيه يحمل دلالات عميقة، إذ يرسخ مبدأ السوق الحر المنضبط بالقيم، ويمنع الاحتكار والضرائب المعيقة لحركة التجارة، في رؤية مبكرة توازن بين الحرية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية.

وقد اختير موقع السوق في فضاء مفتوح قريب من المسجد النبوي، بحيث يكون جزءًا من النسيج العمراني والاجتماعي للمدينة، لا معزولًا عنها. ولم يكن هذا القرب اعتباطيًا، بل كان تعبيرًا عن العلاقة العميقة بين العبادة والمعاملة، حيث يتحرك المسلم بين المسجد والسوق في توازن فريد بين الروح والمادة.

ومن الناحية العمرانية، لم تكن الأسواق في المدينة مبنية على نمط المحلات المغلقة، بل كانت فضاءات مفتوحة تُنصب فيها البسط وتُعرض السلع مباشرة، مما يعكس بساطة المجتمع وسهولة الدخول إلى السوق دون حواجز أو تعقيدات. كما أتاح هذا النمط قدرًا عاليًا من الشفافية، حيث يرى الناس السلع بوضوح، وتتم المساومات في العلن، مما يقلل من الغش ويعزز الثقة بين المتعاملين.

وقد تميزت الأسواق في المدينة بتنوع أنشطتها، فشملت تجارة الطعام، والتمر، والحبوب، والأقمشة، وغيرها من السلع الأساسية، في اقتصاد يركز على تلبية الحاجات اليومية، لا على الكماليات. ولم يكن السوق هامشيًا، بل كان جزءًا من الحياة العامة، يمارسه كبار الصحابة، مثل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، الذي قال حين عُرض عليه المال: «دلوني على السوق»، فكان نموذجًا للاستغناء بالعمل، حتى أصبح من كبار التجار، وكذلك عثمان بن عفان والزيبر بن العوام رضي الله عنهما.

غير أن حرية السوق في الإسلام لم تكن فوضى، بل كانت منضبطة بمنظومة دقيقة من القيم والتوجيهات النبوية، التي جمعت بين الحرية والانضباط. ومن أبرز مظاهر هذا التنظيم ما عُرف لاحقًا بنظام الحسبة، وهو رقابة أخلاقية وسلوكية على الأسواق، تهدف إلى منع الغش والظلم، وضمان عدالة التعامل.

قد مارس النبي ﷺ هذه الرقابة بنفسه، فمر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فوجد بللًا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء، فقال:

«أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مِنِّي» (رواه مسلم)

وهذا الموقف يؤسس لقاعدة عظيمة في الشفافية، ويجعل الغش خروجا عن منظومة القيم الإسلامية.

كما نهى ﷺ عن الاحتكار، فقال: «لا يحتكر إلا خاطئ» (رواه مسلم)،

لما فيه من الإضرار بالناس وتعطيل حركة السوق الطبيعية. ونهى كذلك عن تلقي الركبان، حماية للسوق من التلاعب، وضمانًا لتكافؤ الفرص بين التجار.

ومن القضايا الدقيقة في تنظيم السوق مسألة التسعير (أي: فرض السعر على التجار). إذ امتنع النبي ﷺ عن فرض الأسعار رغم طلب الناس، فقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسْعُرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لأُرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دِينَ وَلَا مَالٍ». (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه)

وهذا الموقف يبرز مبدأ اقتصاديًا عميقًا، وهو ترك الأسعار لحركة السوق ما دامت عادلة، مع التدخل عند وقوع الظلم.

كما ربط الإسلام بين الأخلاق والبركة في التجارة، فقال ﷺ:

«فإن صدقا وبئنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما فحقتُ بركتُ بيعهما» (متفق عليه).

فالربح الحقيقي ليس في كثرة المال، بل في صلاحيته ونفعه.

ولم تكن هذه المنظومة قائمة على القوانين الخارجية فقط، بل على رقابة داخلية تابعة من الإيمان، تجعل التاجر يراقب الله قبل أن يراقبه الناس. ولهذا لم تكن الحاجة كبيرة إلى العقوبات، لأن الضمير كان حاضرًا، والقيم كانت حاکمة.

إن التأمل في أسواق المدينة يكشف عن نموذج متكامل، جمع بين البناء العمراني، والتنظيم الاقتصادي، والضبط الأخلاقي، في منظومة واحدة صنعت سوقًا حرًا، عادلًا، ومفتوحًا للجميع.

فلنحذر أن تتحول أسواقنا اليوم إلى ساحات تغيب عنها القيم، ويُختزل فيها الإنسان إلى رقم أو ربح.

ولنتذكر أن السوق في الإسلام ليس مجرد مكان للبيع والشراء، بل ميدان يومي لاختبار الضمير.

فالتجارة ليست فيما نبيع ونشتري، بل في كيف نبيع، وكيف نشتري.

وأن أعظم ما يُربح في السوق ليس المال، بل رضى الله، وأن خسارة القيم لا يعوضها أي مكسب.

د. طلال بن عبدالله بن حسن بخش

باحث في المصرفية الإسلامية والتمويل

الأربعاء 5 ذو القعدة 1447 هـ

أسواق المدينة المنورة في صدر الإسلام: توازن الاقتصاد والقيم

فلسفة تأسيس أول سوق إسلامي، نموذج فريد يجمع بين الحرية والانضباط.

قال النبي ﷺ: "هذا
سوقكم، فلا تبتقص، ولا
يضرين عليه خراج"

مرسوم التأسيس النبوي يرسخ مبدأ
السوق الحر بلا ضرائب معطلة.

الأسواق القديمة:
احتكار وظلم



السوق الجديد:
حرية وعدالة

التأسيس
والنشأة: من
التبعية إلى
الاستقلال

التصميم العمراني: الشفافية والاتصال



مبدأ التسعير والعدالة:
ترك الأسعار لحركة السوق
الطبيعية، مع التدخل فقط
في حالات الظلم.



التنظيم الاقتصادي
(نظام الحسبة)

إِنَّ اللَّهَ هُوَ
المسَعِّرُ

الرقابة الميدانية: مارس
النبي ﷺ الرقابة بنفسه
للتأكد من جودة السلع
(من غش فليس مي).



منع الاحتكار وتلقي الركبان:
نهى النبي ﷺ عن الاحتكار (لا
يحتكر إلا خاطئ) لضمان تكافؤ
الفرص وحماية السوق.



جوهر القيم: البركة قبل الربح

الرقابة الذاتية والضمير:
اعتماد النظام على رقابة
الإيمان الداخلية، مما جعل
الضمير هو الحاكم الأول.



الأخلاق كضمانة للبركة:
ربط الإسلام بين الصدق والبركة
(فإن صدقا وتبيننا يورك لهما).